



في هذه الأيام التي يشهد فيها العالم الفترة الأخيرة من حياة الدولة العلوية في سوريا، يحسن إبداء بعض الملاحظات التي تتصل بمصائرها وبمصالحها في آن. يمكن القول بداية إنها المرة الأولى في التاريخ العربي القديم والحديث، يصل إلى سدة الحكم في سوريا علويون.

فسوريا كانت عند وصول العلويين إلى قيادة الجيش أولًا ثم إلى السلطة تالياً، دولة ذات طابع إسلامي سني عروبي واضح، كان العلويون في مناطق الساحل السوري وفي الجبال المحيطة باللاذقية عبارة عن أقلية مهمشة لا شأن لها في المصير الوطني العام، ولم يعرفهم أهل الشام إلا كعمال في بعض الأشغال المتواضعة وما إلى ذلك من أعمال الفلاحة، ولكن سببين رئيسيين ساعدوا أهل الشام على قبولهم مثلاً أولًا: في تلاشي عزيمة أهل السنة بعد انهيار الوحدة المصرية/ السورية، وثانيًا: في مؤسسة التسامح وقبول الآخر السوري إلى أي طائفة انتمي، وللسوريين في ذلك تاريخ حافل بالمحارم. وعندما تقدم ضابط انقلابي من الطائفة العلوية قائلاً للشمام إنه بعثي عروبي ويريد إنقاذ سوريا مما تتخبط به، صدقوه، أو قالوا: فلنجرّب.. إلى أن كان ما كان وما يكون في الوقت الراهن.

ولكن السوريين سرعان ما أدركوا عمق الهوة التي انحدرت إليها بلادهم، والمقلب التاريخي الذي وقعوا ضحية له.. ولم يكن بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً لا بسبب دموية هذا الانقلابي وشراسته وعنفه، بل لأن المؤامرة على سوريا كانت خارجية أيضًا. فالمتآمر الداخلي لم يكن وحده، وإنما كان مجرد أداة للتأمر الخارجي، وكلاهما نفذما ما يمكن تسميته بـ «كامب ديفيد» السوري دون حاجة إلى جيمي كارتر ولا إلى كامب ديفيد أمريكي. وعندما استتبّ الأمر لهذا الانقلابي، تحولت سوريا إلى سجن كبير لأحرارها، وكان ثاني الضحايا بعد سوريا: فلسطين ولبنان!.

واستناداً إلى التاريخ يمكن القول إنه منذ موقعة صفين بين جيش الإمام علي وجيش معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهم جمیعاً-، إلى ما قبل نشوء الدولة العلوية الحالية، لم يحكم سوريا شیعة أو علویون أو غير سنته، فالحكم على الدوام كان بيد أهل السنة والجماعة، قد يقول قائل: إن سيف الدولة الحمداني الذي حكم حلب في بعض الفترات كان شیعیاً، وهذا صحيح ولكن دولة سيف الدولة كانت دولة عروبية ذات طابع إسلامي مهم لا دولة مذهبية على الإطلاق.

لub بنو حمدان، وهم من ربیعة، دوراً قومیاً فائق الأهمية في حلب وأنطاكية والموصل بوجه الحملات البيزنطية، ولكن مذهبهم الديني اقتصر على ممارستهم الدينية الشخصية لا أكثر، بالطبع كانت سوريا تتوفر على أقلیات دینية كالعلویین في جبال الساحل السوري، وكالإسماعیلیین في السلمیة، بالإضافة إلى حی من أحياء دمشق يقطنه شیعة اثنا عشریون، ولكن ذلك لا یُغیر في الصورة شيئاً، فسوريا منذ دخلها معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- إلى اليوم مربض من مراصب أهل السنة والجماعة تُقیم فيها أقلیات دینية مختلفة، ولكن حاکمها كان على الدوام حاکماً مسلماً سیساً فقط لا غير، مع الإشارة إلى أن هذا الحاکم كان شدید التسامح مع الأقلیات، فلم یضق صدره يوماً بنصرانی أو درزی يصل إلى کرسي رئاسة مجلس النواب أو إلى کرسي رئاسة الحكومة كما حصل مع فارس الخوری الذي ترأس مراراً مجلس النواب والحكومة، وكما حصل مع الأمیر عادل أرسلان الذي ترأس الحكومة أيضاً.

ولكن المشكلة كانت أكثر تعقیداً مع الضابط الانقلابي العلوی، فقد حمل هذا الضابط في قلبه كل أعباء التاريخ وأحفاد النزاعات القديمة الموروثة بين بنی ملته والأکثريه. وعندما وصل إلى السلطة في دمشق تصرف کعلوی لا کسوری جمع السلطة كلها في ذاته وفي طائفته. ولم یُشرك الآخرين على الإطلاق في القرار الوطني العام.

الآخرون عبارة عن دیکور خارجي لا أكثر ولا أقل، ونموجهم السابق هو خدام والحاکي فاروق الشرع. قاده الجيش وأجهزة الأمن والمخابرات كلهم من الطائفة العلوية. کبار موظفي الدولة، السفراء. غاب علماء وزعماء الشام وغاب معهم وجه المفتی السوري المسلم، وبات المفتی هو هذا المفتی الذي يراہ الناس على الفضایات واحداً من حاشیة الحاکم یسیر وراءه. على أن الأکثرب من كل ذلك هو أن العلویة امتدت إلى قرار سوريا ذاته، إذ لم تعد سوريا هي سوريا العربية الإسلامية المتحالفه مع مصر والخليج وبقية الدول العربية، بل سوريا أخرى تُقیم علاقة إستراتيجية مع إیران لا یُمكن عزلها عن عالم المذهبیات، كما تُقیم علاقة إستراتيجية مع جیوب مذهبیة أخرى کدولیة حزب الله وحركة أمل في لبنان.

وقد امتدت مثل هذه التحالفات إلى دول قرمطیة أو مارقة أخرى في العالم، منها دولة تشافیز في فنزویلا ودولة کوریا الشمالیة، دون أن ننسى دولة بوتین في روسیا، وهي أسوأ الدول المافیاوجة في العالم.

وبذا الأمر غریباً. فالدولة العلویة تحرص في الظاهر على خطاب قومي وطني فلسطینی عروبي تحرّری ممانع -من ممانعة وتمتنع-؛ ولكنها تنحر مثل هذا الخطاب من الورید إلى الورید في الباطن. كان المهم إجاده التمثیل وخداع الجمهور، لقد حصل ذلك ثم انتهى الأمر.

حوالی نصف قرن من الحکم، لم تقدم الدولة العلویة لشعبها شيئاً یُمكن أن یذكره هذا الشعب يوماً بالخير، فبالإضافة إلى تحوّل سوريا في عهدها إلى سجن كبير، فقدت سوريا روحها، كما فقدت أي علاقة لها مع العالم الحديث، الإداره العامة فيها إدارة رثة، انعدام أي وجود للقانون والمؤسسات، میزانیة الدولة كلها ليست أكثر من ثروة أحد المليونیریة في العالم، الاقتصاد على الأرض، والزراعة بداییة، أمّا الصناعة فیُسيطر على سبعین بالمائة منها ابن خال الرئيس.

والتنمية الاقتصادية عنوان في كتاب في الاقتصاد. فإذا جئنا إلى الجيش وجدنا أن 80% من مشترواته من السلاح -وهذه معلومات وإحصاءات- مخصصة للاستعمال الداخلي لا الخارجي، ولهذا مدلولاته بالطبع. ثم إن هذا الجيش المفروض إنه جيش تحریر الجولان (فلسطین أيضاً) لم یخض طیلة نصف قرن إلا حربه الحالية ضدّ شعبه، وهي من أكثر الحروب کلفة نظرًا للدمار الفظیع الذي حلّ بمدن سوريا وبلداتها وريفها.

ولعلّ من أعظم النقد الذي يمكن توجيهه لهذه الدولة هو أنها حكمت، لا بالاشتراك مع بقية مكونات الشعب السوري، بل لوحدها، ففيض الضابط الانقلابي على قرار سوريا بمفرده وسيّر أقدار سوريا حيث شاء، لا حيث مصالح سوريا العليا، ولو أنه أشرك الآخرين معه، وحكم بحسب تعاليم الإمام علي في نهج البلاغة، لما وصل ابنه إلى ما وصل إليه اليوم، ولكن لم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك، فما كان موكلًا إليه أن يفعله، لم يكن بالإمكان فعله بحضور أبناء وأحفاد بنى أمية!.

على أن على أهل الشام أن يشكروا الله؛ لأن هذه الدولة العلوية تساهلت معهم، فلم تهدم الجامع الأموي، ولم تمنع الأذان، ولم تحل دون طباعة القرآن. أما الجامع التي تهدمت في حمص وحمادة وإدلب ودرعا ودير الزور وبقية المدن والقرى السورية الباقية، فيُمكن ترميمها أو إعادة بنائها مع الوقت بعد أن يمرّ الإعصار ويعود كل شيء إلى طبيعته وأصله.

وبلا شك فإن ما يحلم به الرئيس بشار الأسد اليوم من اقتسام السلطة مع الثائرين بوجهه، لن يتحقق أبداً، سيتسلّم الثوار وحدهم هذه السلطة، وستعود سوريا سورية وعربية وإسلامية كما كانت على الدوام، ولكن على هؤلاء الثوار أن يحضنوها كل مقومات بلد�ّهم، وأن يحرصوا على دراسة ثقافة وتاريخ طوائف سوريا ومذاهبها، وبالتالي الاهتمام بكتاب التربية الوطنية (1)، وهو كتاب بإمكانه أن يُساعد مستقبلاً على صياغة وجدان وطني سويّ متحرّر من الطائفيات والمذهبيات.

---

(1) الأولى الاهتمام بكتاب التربية الإسلامية، فهو غني بالقيم والأخلاق التي تساعد على وحدة الصف، ولم الشمل، ورأب الصدع (نور سوريا).

المصدر: صحيفة الراية

المصادر: